

☞ <http://www.marocagreg.com>

# محنة العقل في ظل غياب ثقافة التسامح

د. محمد قشيش  
المدرسة العليا للإسنادة - مكناس

قال تعالى: "لئن بسطت يدك لتقتلني ما أنا بباسط إليك يدي لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين" سورة المائدة، الآية 30.

\*\*\*\*\*

ابن عربي "وما قولك أن الفيلسوف لادين له، فلا يدل كونه لادين له على أن كل ما عنده باطل و هذا مدرك بأول العقل عند كل عاقل".  
فولتير: "لا أتفق مع ما تقول، لكن سأدافع حتى الموت على الحق في قوله".

\*\*\*\*\*

كانط: "كن جريئا في أعمال عقلك، لا تخضع للآخر، و فكر دون معونة الآخرين".

\*\*\*\*\*

دنييل إنيرارتي "فإن سلطتنا على معاني الكلمات محدودة بشكل كبير، إذ من السهل جدا أن نسيئ إلى الآخرين لكن ليس لدينا من حل آخر غير أن نتعلم كيف نتعايش مع الاختلاف".

\*\*\*\*\*

إن الغاية من النظر في الموضوع هي المساهمة في مناقشة موضوع متشعب، معقد في أسبابه، وسبل حلوله، و اتخاذ الموقف الملائم، و الانخراط الإيجابي في بيان ضرورة التسامح، نظرا و ممارسة، باعتباره السلوك الوحيد الذي يعكس التصور الصحيح للذات و للغير سواء كان فردا، أو جماعة، أو ثقافة. يقدم التسامح كقيمة يظهر من خلالها احترام الإنسان لذاته، و للغير، و يساهم في التقارب بين الناس.

سأركز في قولي هذا على أمثلة أو نماذج من اللاتسامح في حياتنا و بيئتنا، من خلال بعض المجالات التي يتمظهر فيها بهدف استخلاص العبر، و الانخراط المسؤول في محاربة كل أشكال الانحراف المرضي في بيئتنا لما في ذلك من مصلحة البلاد و العباد.

إن اللاتسامح هواء ملوث، قاتل . يشبه الأفعى التي تلتف على العقل وتلدغه لتشل حركته. لذلك اخترت الحديث عن محنة العقل في ظل اللاتسامح لأن المتضرر الأول من هذه الآفة هو العقل ، و العقلانية .هذا العقل وحده الذي به سمى الإنسان إلى أسمى رتبة في الوجود و الذي يشكل بإعماله — شريطة أن يكون محصنا بالمبادئ الأخلاقية السامية — الأداة الوحيدة لبناء إنسان المستقبل، و تحقيق القيم الإنسانية النبيلة : المساواة والكرامة ، و التقدم المنشود . سأركز في قولي هذا على نماذج من محنة العقلانيين في مجالات الإبداع المختلفة : الفلاسفة، و المبدعين في كل مجالات الفن، والفكر،والعلم .

### تجليات اللاتسامح في ثقافتنا، و التي توجه سلوكنا و تؤطره :

- هي من الكثرة بحيث يصعب حصرها أذكر منها :
- كراهية الآخر أو الغير، الذي قد يكون هو الأقليات المختلفة : العرقية ، و اللغوية . و قد يكون هو المخالف لي في الانتماء السياسي ، أو المذهب . كراهية قد تصل إلى حد اتهامه بالعمالة، و الانتهازية.
- العداة الشديد للآخر المخالف لي في الاعتقاد الديني، أو لكل من ليس على تصوري للدين، و للعبادة، و اتهامه بالكفر والإلحاد.
- احتكار الدعوة لمنع كل ما هو مخالف لي و تحريمه بممارسة الرقابة الجائرة على كل أشكال الإبداع الفكري، و الفني، من فلسفة، و فنون مختلفة: (سينما، و مسرح، و غناء، و رسم ، و نحت) الخ .
- ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة.
- السطو على ما يشكل ملكا عاما، دينا كان ، أو نصا مقدسا ، أو غيره.
- و تسييجه و تحويله إلى ملك خاص، و تنصيب الذات متحدثا باسمه .

- رفض الحقوق الفردية و الجماعية أو تجاهلها: الحق في الكرامة ، و في الحياة و في الحرية في شموليتها، و الحق في المساواة.
- رفض كل أشكال الحوار و محاربتة .
- الدعوة إلى قتل المخالفين لي في الرأي باعتبارهم رؤوس فتنة .
- محاربة كل أشكال العقل و العقلانية . و كل أنواع الفكر النقدي التحليلي التنويري و الاستبداد بالفكر، و الرأي الوحيد ، باسم المرجعية التي قد تكون سياسية، أو دينية أو غيرها . بل الذهاب إلى حد تحويز العقل ، و الدعوة إلى تعطيله.
- التعصب الأعمى ، و إنكار الحق في القراءة الحرة ، و تأويل النصوص ، و رفض تعددية المعرفة ، و تنوع الفهم ، و الاجتهاد ، و إلغاء الآخر المخالف لي في الرأي. و ادعاء امتلاك الحقيقة ، و الفهم الشامل الذي قد يحول صاحبه إلى الناطق الرسمي باسم المطلق الذي قد يكون نصا مقدسا، أو موجودا منه يستمد "قداسته"، و يعطي لنفسه الحق للكلام باسمه.
- رفض القيم الإنسانية المنصوص عليها في مواثيق حقوق الإنسان، و التعصب و التفوق على الذات .
- خرق الشرعية الدولية ، و عدم الانضباط لقرارات مجلس الأمن، و الهياة العامة للأمم المتحدة .
- هذه بعض خصائص ثقافة سائدة و تجلياتها، و التي في ضوئها يعمل صنف من الناس و يفكر و هي :
- ثقافة الحقد و التهويل و إعلان الحرب على الآخر، و الدعوة إلى الانتقام .
- هي ثقافة القدرية ، ضد ثقافة الاختيار، و الحرية ، و المسؤولية.
- هي ثقافة الشعوذة ، و السحر المناقض للدين الصحيح ، و المعتقد السليم.
- قال جيمس فريزر أنطروبولوجي معاصر: "كلما انحطت الثقافة ، كلما تكاثرت السحر، و أصبح الدين الحقيقي النقي أقل أهمية"<sup>1</sup>.

هي ثقافة الدعوة إلى ممارسة الإقصاء ، و الإرهاب ، والقتل . لاتعرف سوى تقديس الأشخاص، أو بعض النصوص ، أو بعض الأنظمة السياسية . هي الثقافة المنشغلة بزرع بدور التزمت، و تقوية شوكة الكراهية ، و الانغلاق، و التعصب ، و العنصرية و تقديس الطابوهات السياسية ، و الدينية. إنها ثقافة النظرة الأحادية للأشياء ، و اعتناق الشمولية فكرا و سلوكا ، و رفض الاختلاف، و الحق فيه. كل ذلك باسم المرجعية، و الهوية ، و الخصوصية . هي ثقافة التقديس المغلق على حد تعبير الكاتب السوري فراس سعد . والتي تحول الزمني إلى الأبدى ، و تحول النسبي إلى مطلق ، و المتحول إلى ثابت . ثقافة ترفض الحداثة الفكرية، و قيم حقوق الإنسان، و تمارس الاستبداد، و التزمت في كل أشكاله . ثقافة الأفضليات القاتلة.

هي باختصار "ثقافة تتسلل إلى أدمغة الملايين التي تمشي من غير نعال ، و تسكن في الليل بيوتا من سعال"، نزار قباني.

هي الثقافة التي تباع في بيئتنا على الأرصفة، و تسوق في بعض الفضائيات، و الأسواق الشعبية، و في أبواب بعض المساجد، و تحضر بقوة في خطب بعض أئمة المساجد، و في بعض المجالس الأسرية كانت مجالس فرح أو مأثم . وهي الثقافة التي تستنبت في عقول فتية في مراحل مختلفة في الدراسة . و ترسخ نزعة التكفير، و بدور التزمت ، و التعصب ، و الانغلاق على حد تعبير عبد الكريم عمراي<sup>2</sup>.

### من هم سدنة هذه الثقافة ؟

— هذه هي ثقافة الجماعات المتطرفة الدينية و السياسية . يورد محمد كرم — كاتب كويتي — في مقال "وعى الإرادة وانتصار الحرية<sup>3</sup> رأي الباحث عبد الله القصيمي في هذه الفئة " إن من أسوأ ما في هؤلاء أنهم يتسامحون مع الفاسقين، ثم لا يتسامحون مع المفكرين ، بل يتعصبون جدا ضد المفكرين. إنه قد يثيرهم مفكر واحد يتحدث مع نفسه همسا، ثم لا يحركهم أن يخرج كل من في الدنيا على فضائل الدين و الأخلاق . إن المطلوب عندهم هو المحافظة على رجعية الفكر ، لا على نظافة السلوك ،إنهم قد يغفرون للشيطان كل ذنوبه لو أنه أصبح رجعي التفكير " .

2 - جريدة صوت الناس ، عدد 165 .

3 - جريدة الأحداث المغربية ع 2914 ، 26 يناير 2007.

بل هذه هي ثقافة أفراد، وجماعات، وهيات، و بعض الأنظمة السياسية، و بعض الدول . و التي تعمل جاهدة على إشاعتها بكل الوسائل الممكنة .

### نماذج من اللاتسامح في ثقافتنا وبينتنا العربية الإسلامية :

— برتبة الشرف الأول حصل سعد علي علي درجة الدكتوراة من جامعة محمد بن سعود بالسعودية عن رسالته "الانحراف العقائدي في أدب الحدائة وفكرها "وهي الرسالة التي كلف فيها مائتي "200"مثقّف في الوطن العربي الأشد تأثيرا في الثقافة<sup>4</sup> — المتابعة القضائية لـ "معززة اليميني جيع الباحثة التركية في الآثار، بتهمة التحريض على الكراهية، وإغضاها للأوساط الإسلامية عقب نشرها بحثا تقول فيه أن استخدام المرأة للحجاب يعود إلى أصول وشعائر جنسية سبقت الإسلام<sup>5</sup>.

— يسوق الباحث عز الدين العلام — في مقارنة بين نظرتين مختلفين للإنسان وللعالم في مقال بعنوان "حينما أفتى التاريخ في مصير حضارتين" — نموذج من تجليات التسامح في العالم الغربي و غيابه في بينتنا "في الوقت الذي كان فيه رجل اسمه جون بدوان ينظر إلى سيادة الدولة الحديثة ، ويتحدث عن التسامح، كان في المغرب رجل اسمه ابن أبي محلي ينظر أو يشرع لللاتسامح وهو الأمر الذي يتجلى في عناوين مؤلفاته :— "أصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت " ، و "منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور " ، و "السيف البارق مع السهم الراشق" ، و "سم ساعة في تقطيع أمعاء المخالف للجماعة"<sup>6</sup>.

— تكفير مدرس مادة الفلسفة الفرنسي "روبر ريدكر" والدعوة إلى قتله، عقب نشره لمقال يعطي فيه تصوره للديانة الإسلامية. وقد أجب على الاختفاء بعد أن دعا أحد المواقع الإسلامية إلى معاقبة "الخترير من قبل "أسود فرنسا " كما فعل "أسد " هولندا محمد البويدي بعد أن نشر الموقع صورة وعنوان ورقم هاتف روبر ريدكر. وليس البويدي هذا سوى الشخص الذي اغتال السينمائي الهلندي ثيوفان غوغ في أمستردام، نونبر 2004 .

4 - جريدة روز اليوسف المصرية 2007،

5 - ج الأحداث 22 \_ 10 \_ 2006.

6 - جريدة صوت الناس ، ع 167 .

يذكر البروفيسور روني ريمون عضو الأكاديمية الفرنسية<sup>7</sup>: تساءل البابا بندكت السادس عشر وهو الشخصية الجامعية والتكنولوجية — من خلال خطابه الذي ألقاه في جامعة "راتسون" في صورة درس أكاديمي حول قضية فلسفية عن العلاقة بين الفعل الديني والعنف ، ومن ثم جاء استناسه بقول الإمبراطور البيزنطي "ما نويل الثاني" الذي خاطب محدثه حول الجهاد أثناء حصار القسطنطينية بقوله: "بين لي إذن ما الذي أتى به محمد من جديد فلن تجد إلا الأمور السيئة، واللاإنسانية ، ومن ذلك قوله إن الدين الذي دعا إليه محمد لا بد من نشره بحد السيف " . علق البروفيسور روني ريمون على هذا بقوله إن الاستناس بقول أحدهم لا يعني تبنيه له والموافقة عليه ، لاسيما ان البابا وصف كلام مانويل الثاني بالكلام المباشر الجارح .

— أتفق مع المؤرخ البريطاني تموتي غارتون آش ، مدير مركز الدراسات الأوروبية بكوليج سان أنطوني بجامعة أوكسفورد بقوله إن مقال روبر ريدكر في "لوفيكارو" يغيب عنه الاعتدال والحكمة من خلال التأكيد على " أن الإسلام هو المقابل الآن للشيوعية العالمية من الصنف السفلي . بالأمس كانت موسكو واليوم مكة . ومن خلال وصف محمد بأنه زعيم حرب لا يرحم ، وبأنه ناهب ممتلكات، وقاتل يهود ومتعدد الزوجات " . لكن المطلوب في مثل هذه المواقف ليس إهدار دمه بل بيان فساد آرائه فقط .

— ممارسة الرقابة الذاتية من طرف أشخاص ودول . وفي هذا السياق وصفت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل قرارا "دوتش أوبرا " لبرلين بإلغاء تقديم أوبرا "الإيديموني " لموزار بالرقابة الذاتية بفعل الخوف . وهي التي تتضمن مشهدا تبدو فيه رؤوس شخصيات بوسيدون والمسيح وبودا ومحمد(ص) مقطوعة .

— مثال آخر على الرقابة الذاتية : ففي مدينة بيرمنغهام بالمملكة المتحدة الغي تقديم مسرحية BEHZTI " العــــــــــــــــار" التي تكشف فيها صاحبها غوربريت كوربهاتي البريطانية من أصل سيخي الاستغلال الجنسي ، وجرائم القتل التي ترتكب داخل جماعات السيخ . ألغيت المسرحية على إثر قيام السيخ بمظاهرات أمام قاعة المسرح في دجنبر 2004 .

— أفتى الداعية المصري صفوت حجازي بقتل أي يهودي صودف وهو يتحول في مصر، وهي الدعوة التي نشرتها جريدة "صوت الأمة" المصرية .

— اعترف المفكر الألماني والأديب غونتر غراس — الحائز على جائزة نوبل في الأدب على روايته الطبل 1999— في استجواب معه، بأنه كان عضواً في قوات س.س SS العاصفة النازية في فترة شتاء 1944 و 1945 . وقد تعرض ، عقب هذا الاعتراف لنقد عنيف، و رغم ذلك لم يحاكم ، ولم يهدر دمه .

اختارت جامعة كامبردج الباحثة بروجوغينا شفتيلانا الروسية الأصل — دكتورة في الأدب ، وباحثة متخصصة في الأدب المغربي — سيدة 1992 في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية الروسية للعلوم. وفي مقابل ذلك منعت الكاتبة السعودية وجيهة لحويدر — وهي الحائزة على جائزة رابطة الكتاب العالمية والتي تم تكريمها سنة 2004 — من الكتابة ، وتم حجب المواقع الإلكترونية التي تكتب بها بسبب كتاباتها التنويرية الناقدة للتيارات الدينية المتشددة . هذا كله ، بالرغم من مصادقة السعودية على "اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة" .

— الدعوة إلى منع عرض شريط عمارة يعقوبيان في القاعات السينمائية من طرف برلمانيين في البرلمان المصري . فضلاً على متاعب الشريط مع الرقابة الفنية .

— المتابعة القضائية لأنور عكاشة السيناريست المصري المتميز وتوصله بتهديدات بالقتل على بعض أعماله الفنية .

الدعوة في إيران إلى منع عرض فيلم "تسلل" في القاعات السينمائية للمخرج الإيراني جعفر بناهي .

— منع شريط دافنشي كود" شفرة دافنشي " في القاهرة لأن فيه إساءة للمسيح على حد قول أصحاب الدعوى . والمفارقة العجيبة هي أن الفيلم يعرض في القاعات السينمائية في الغرب التي من المفروض أن الشريط موجه لها بالقصد الأول ويقصد معتقداتها.

— محاكمة الأديب الأردني نصر الله على بعض إبداعاته .

— تكفير الشاعر أدونيس على بعض تصريحاته وآرائه.

— محاصرة المفكر المصري سيد قمى وذلك عقب توصله ببيان إنذار من جهة تقول "احسأ عدو الله" وإجباره على الهجرة القسرية خارج مصر بسبب كتاباته وخاصة ما ورد في كتابه "حروب دولة الرسول". والدفع بالأستاذ عبد الغفار شديد إلى الاستقالة من التدريس الجامعي، وهو عميد كلية الفنون الجميلة بالزمالك<sup>8</sup>. اتهم د عبد الصبور شاهين بالكفر والزندقة بسبب ما عبر فيه من آراء في كتابه "أبي آدم... قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة".

— محنة علي عبد الرازق الذي كتب عام 1925 في كتابه "الإصلاح أصول الحكم" بأن الخلافة ليست من صميم الدين.

— وما حصل لابن رشد الفيلسوف في وطنه من تضيق للحناق، ومتابعة، ومطاردة

قال مراد وهبة أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس: إن سيادة العلمانية التي لاتعرف الكفر والتكفير قد سمحت في الغرب بصياغة رؤية مستقبلية تقود الأمم نحو التقدم في الوقت الذي حوصرت فيه "علمانية" أو عقلانيته ابن رشد في الشرق من مريدي الغازالي، وابن تيمية. بينما أمر فريدريك الثاني بترجمة أعماله إلى اللاتينية وكان المترجمون مسيحيون، ويهود، عملوا جنباً إلى جنب من أجل تحرير العقل في الغرب من سيطرة كل أشكال التفكير المسيحي المترمت، وأشكال اللاعقلانية.

— ذكر الباحث محمد الشيخ الطريقة التي قرأ بها اليافعي في "مرآة الجنان" عمل ابن يونس حيث "كان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل ويشرح هذين الكتابين لهم شرحاً يعترفون أنهم لا يجيدون من يوضحهما له مثله"، ثم علق على هذا بالقول: "قلت هكذا ذكر عنه ومثل هذا معلوم أنه حرام وباطل. وذلك لوجوه: أحدهما إترك كتب منسوخة، ومبدلة باطل حكمها لا يصلح العمل بها. والثاني مؤانسته لأعداء الله، وبجانسة لهم مع وجوب مقاطعتهم، والبغض لهم. والثالث إغراؤه لهم على الاشتغال والعمل بما فيها، وقد نص أئمتنا أنها تلتف".

قال جون استوارت ميل في القرن التاسع عشر إن الليبرالية تعني تحرير الإنسان من المجتمع "أي أن الفرد أعلى من المجتمع أقوى منه لأنه هو المبدع، والإبداع هو المحرك

الأساسي للمجتمع نحو التقدم ونحن هنا في مصر نتباهى بأحمد زويل ونجيب محفوظ غير أن المشكلة أننا حرما زويل من مواصلة بحثه العلمي في مصر وحاولنا قتل نجيب محفوظ لمنعه من الإبداع".

— وما حصل لظه حسين مع زعيم الوفد سعد زغلول ضد كتابه الشعر الجاهلي .

— إن التاريخ مليء بالأمثلة على الاغتيالات المفكرين والمبدعين: نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الخلاج ، والسهر وردي ، ،ابن باجة ، مهدي عامل ، حسين مروة، فرج فودة ، ، رضا هلال ، سمير قصير، . واللائحة طويلة<sup>9</sup> .

### ثقافة التسامح

— هي ثقافة الثقة في المستقبل، والأمل في عالم آخر جديد أفضل، وهي الثقافة التي تقر الحق في الاختلاف، وفي القراءة والتأويل . وهو ما لا يتعارض مع الشرع " لأن القرآن الكريم حمال أوجه" كما قال عمر بن الخطاب، وأكدته بعده عثمان بن عفان.

من بين الأمور التي يمكن تصورها بديلا يسمح بترويح وإشاعة ثقافة التسامح :

— هناك عدة واجهات يمكن الاشتغال عليها منها واجهة التربية والتعليم: تربية الناشئة على مبادئ حقوق الإنسان والمواطنة الحقة . وهذا لن يحصل إلا بإصلاح منظومة التربية والتكوين، الذي يلزم أن يهتم المضامين، والمناهج من أجل أن تساهم في ترويح مبادئ إشاعة التسامح ، والحق في الاختلاف، والفكر الحر. وتدريب الناشئة على رفض منطق الشبيه ، وهو منطق إقصائي للغير المخالف لي في الرأي والاعتقاد .

— و بالتربية على تحليل الخطابات ، وتمكين الناشئة من آليات تفكيكها، وممارسة النقد البناء . محاربة تلقين ثقافة الحقد، والكراهية، وفضحها ، ونبذ كل ثقافة تدعو إلى الإقصاء .

— وترسيخ الحق في الاختلاف، والاعتقاد، ورد الاعتبار لفكر الاختلاف، ضمن نسق تواصلية منهجية تكاملية، وخلق كيان ثقافي متعدد ذي أبعاد إنسانية. خاصة إذا علمنا أن الاختلاف سنة إلهية. "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك وكذلك جعلهم". والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية تشجع على الاجتهاد، والمثابرة والنظر العقلاي . طالب الرسول (ص) المسلمين أن يتعاملواالكثير من أمور الدنيا وفق ظروفهم "أنتم أعلم بأمور دنياكم". وقال "الدين المعاملة".

لذلك كانت الكرامة هي كرامة تقوى، وهذه ليست سوى فضيلة إنسانية. ليست حكرا على ملة دون أخرى: "لافضل لعربي على عجمي ولالعجمي على عربي إلا بالتقوى".